نظرية الأجناس البشرية
والكونت دى غوبينو
الأستاذ ماجد بهجت

جدير فى هذا الظرف الذى يمثل فيه زعماء النازية أمام محكمة نورمبرج الدولية ومن بينهم روزنبرج حامل لواء العقيدة الجنسية وزعيم حركتها ، أن نقدم إلى قراء العربية خلاصة عن نظرية الأجناس البشرية التى بشر بها الكونت دى غوبينو الفرنسى، ولا سيما وأن هذه النظرية شغلت الرأى العام طول الحرب وهى ما تزال موضع تفكير الناس واهتمامهم . على أنا حاولنا جهدنا الاختصار تاركين لأهل العلم والاختصاص الإفاضة والتطويل . وقد اقتصرنا على ماجاء فى أصل النظرية لدى الكونت دى غوبينو وتأثيرها فى حينه . هذا وامامنا نعود إليها ثانية لنستكمل بحثها والتطور الذى طرأ عليها فى العهد النازى .

الكونت دى غوبينو :

فى يوم من أيام ١٤ يولية الذى دك فيه الباستيل وخرج الأحرار منه يعلنون حقوق الانسان ومبادئ الحرية والمساواة تمخضت امرأة حامل من الأسر الفرنسية النبيلة عن غلام هو الكونت « جوزيف ارتوردى غوبينو » ، وقد اشتهرت هذه الأسرة بعدائها للثورة الفرنسية ومبادئها فشب الطفل يوسف على المنوال نفسه ، شريكاً فيه نزعة الأرستقراطيين وعلى شفتيه نبرات الأمر ، محباً للمطالعة مشغوفاً بالسياحات ، أراد أبوه الضابط فى حرس شارل العاشر ملك فرنسا أن يجعل منه ضابطاً مثله فى السلك العسكرى فأدخله بعد إعداده الاعداد الدراسى اللازم مدرسة سان سير الشهيرة ، لكنه لم يحظ برؤية ابنه متوشحاً الأوسمة يختال ببزته العسكرية إذ انتقل إلى دار الفناء، فانتقل ابنه إلى عهدة عمه الكونت تيبو يوسف دى غوبينو الذى اشتهر فى يوم ٩ برميدور باطلاقه رصاص مسدسه مع بعض المتهوسين على بعاقبة المؤتمر الوطنى . أراد الكونت العم أن يستعمل سلطته فلايدع ابن أخيه يتصرف فى الأموال التى خلفها له أبوه على هواه فكان نزاع بينهما انتهى بأن استقل الكونت الشاب بثروته فسكن باريس وانكب انكبابا منقطع النظير على الدرس والقراءة ، فانه ليستمر عليها أياما طوالا حتى إذا شعر بحاجته إلى اللهو والراحة عمد إلى قطعه من الحجر ينحت فيها على شكل أقنوم أو تمثال جميل أو إلى يراعه يجر على القرطاس ما تجيش به نفسه من المشاعر والأهواء ، وكان كتاب مدام دى ستال عن سياحتها فى ألمانيا قد أثر فيه فيؤثر تلك البلاد برحلاته وتجواله ثم يتحول إليها ويلتحق بجامعة مدينة بنا ، وهناك يبدأ حبه للعنصر الجرمانى الأشقر حتى إذا عاد إلى بلاده انكب كعادته

لإخوانهم ، ومأثرة باقية عند الناس وعند الله ، ونجاة من ملل الصيف وحره ، ويكون لهم من هذه الإقامة فى القرية تحت الخيام ، وهذا التعاون مع إخوانهم على هذا العمل الصالح سعادة تمر الأيام ويذهب الشباب ، ولا تمحى من النفس ذكراها ، ويكون ذلك هو الدواء الشافى لهذا الداء المثلث الذى استعصى على الأساة ، داء الفقر والجهل والضعف ... هل يقبل على ذلك شباب (الإخوان المسلمين) السباقين إلى كل خير ؟

وهل يعمل هؤلاء الشباب على إنشاء (أدب القرية) ؟ ذلك بأن يدعوا الكتاب والشعراء إلى وصف حياة القرية ، وأن يكتبوا فيها القصص ، والمباحث ، ويختلطوا بالفلاحين، ويترجموا لنا آمالهم وآلامهم . وهذا اللون من ألوان الأدب موجود فى كل الألسنة واللغات إلا اللسان العربى ، فانه قليل فيه أو هو نادر ، وعلة ذلك احتقارنا الفلاح ، وإهمالنا شأنه ، ونسياننا أن الفلاحين ناس مثلنا ، يبذلون فى سبيلنا كل شىء دون أن تصل إليهم مكافأة ، أو ينالوا ربحاً ، أو يسمعوا شكراً ؛ بل إنهم ليتمنون أن ينظر إليهم الـ (بك) كما ينظر إلى كلبه العزيز عليه ، الأثير لديه ...

فيا هؤلاء المساكين !

إن المروءة والشرف والواجب الوطنى ، والدين والإنسانية ، وكل مبدأ مقدس يدعوكم إلى مساعدة الفلاح ، يا أيها الشباب ...

فيا أيها الشباب : إلى القرية ... إلى القرية !

* * *

لا . لست اشتراكياً ، ولا شيوعياً ، ولكنى إنسان ، وإنى مسلم !

على الطنطاوى

على مطالعة كتب الشرقيات محاولا استخراج برهان لشيء يجول فى خاطره ، أو غاص فى كتب علمية مختلفة بيولوجية وفزيولوجية أو فلسفية وتاريخية يستنتج منها مادة لنظرية جديدة .

العوامل النفسية لدى الكونت دى غوبينو :

هى نظرية جديدة تتجاوب مع نفس هذا الشاب الارستقراطى الذى أتت الثورة على امتيازاته فزحزحتها ، وتتفق مع هذه النزعة الاستعمارية فى الفتح والتوسع التى بلغت أشدها فى القرن التاسع عشر أوحت إليه بها كل هذه العوامل المحيطة به ، فهو لا يرتضى أن يتساوى مع غيره لأنه أرفع منهم شأنا ، ولا يريد أن يكون وإياهم على صعيد واحد من حيث سلالة العرق وجريان الدم ، لكن مثل هذه الأوهام لا يمكن أن تنطلى على طبقات الشعوب الأوروبية ، لا سيما وأن مبادىء الثورة أعطتهم الدليل تلو الدليل على أن مسألة تأخر أناس وتقدم آخرين هو محض تهذيب وتثقيف أصاب منه واحد بسهم وحرم منه الآخر .

من هم إذاً ؟ هم هؤلاء الشرقيون الذين انحطت مدنيتهم فى هذه العصور الحديثة وقلت وسائل دفاعهم ، مما جعلهم عرضة لأطماع سكان أوروبا الغربيين . وجد الكونت دى غوبينو ضالته فلم يبق عليه إلا أن يدعم رأيه بالبرهان ويؤيده بالمنطق العلمى .

يدخل الكونت السلك السياسى الخارجى وتظهر له كتابات أدبية عديدة ، منها مأساة فى خمسة فصول وقصص فروسية مختلفة ، وإنها لتمضى خمس عشرة سنة يقيم فى أثنائها تارة فى برن عاصمة السويسريين ، وتارة فى فرنكفورت من أعمال ألمانية حيث تجرى له مقابلة مع الوزير الألمانى الشهير بسمرك ، ولكنه يظل فى كل هذه المدة دائب العمل على البحث والتنقيب ، وفى حوالى سنة ١٨٥٣ يدفع بنظريته إلى النشر .

النظرية :

إن المخلوقات من حيوان ونبات وجماد تخضع لقانون طبيعى أزلى يتميز بعضها من بعض . فهناك فصيلة خير من فصيلة ، وعنصر خير من عنصر ، وبطون خير من بطون .

فى الحيوان ترى الخيول العربية مثلا أفضل من غيرها .

وفى النبات ترى الورد الجورى له رائحة زكية هى أعبق وأشهى على الشم من غيرها .

وفى الجماد تجد للفولاذ متانة تفل الحديد . كذلك الإنسان — وهو عنصر من الحيوان — فان لبعضهم تفوقا على آخرين ، وهذا الإنسان المتفوق « إنسان أعلى » Sur homme ، وإنه ليكثر عدد المتفوقين فى شعوب دون شعوب ، فبطبيعة الحال تكون هذه الشعوب التى كثر أفرادها المتفوقون ، شعوبا متفوقة « شعوباً عليا » Snrpeuples ، وما دام قانون الطبيعة يعطى الغلبة للسامى المتفوق فان من الحق الطبيعى لهذه الشعوب المتميزة أن تكون لها السيطرة ، وأن تقبض بيدها على مقدرات العالم .

هذا وإن تطور تاريخ تطور الشعوب — كما تقول النظرية — هو تطور العرق ذاته ، ولقد كانت الأمم ذات البشرة البيضاء سباقة إلى المدنية والرقى ؛ بل إنه كتب لها دائما الظفر فى جميع الميادين فدلت على علو كعبها وسمو محتدها . وهناك فوارق ذات بال فى الجنس الأبيض نفسه ؛ فإنها ليست كلها سواسية ، فالرفعة والسمو منحصران فى العناصر المتحدرة من أصل آرى فقط ، لاسيما ما كان منها من هذه الكتلة المختارة أحفاد الجرمان والفرنك القدماء ، وأن زعم الساميين القديم بأرجحيتهم وحصر مظاهر القوة والجمال والذكاء فيهم ، والعوامل التى تؤهلهم لأن يتحكموا بالعالم على هواهم ، هو مجرد بطلان وأوهام ، فان العنصر السامى أحط من أن يبلغ المستوى الذى فيه العنصر الآرى فلا عبرة هنا لبياض بشرته .

تعتمد النظرية فى إثبات دعواها على أربعة عوامل : روحية ، وعلمية ، وتاريخية ، وواقعية .

١ : إن القدرة العلوية شاءت أن تختار عنصرا متفوقا من بنى الإنسان ، لتعهد إليه بالإدارة ، ولتكل إليه أمر القيادة فى العالم .

٢ : إن العلم فى ذاته فيه دافع إلى السيطرة والغلبة ، فإنه يسلم صاحبه وسائل ارتقائه وسموه .

٣ : إن التاريخ يحدثنا عن الأبطال وحدهم ، فهم السادة المطاعون القابضون على زمام الأمور .

٤ : إن الواقع يصف لنا حاجة الأمم الماسة إلى التوسع ، وبسط النفوذ نتيجة لزيادة الإنتاج وكثافة النسل .

وتنتهى النظرية بالدعوة إلى وجوب إنشاء امبراطورية واحدة تضم جميع هذه الشعوب التى كتب لها ابيضاض الجلدة وصفاء الدم فتهيمن على العالم وتسيره بارادتها الجبارة .

وقع النظرية فى فرنسا :

لم يؤبه للنظرية عند ما نشرت فى فرنسا ، ولم تلق شيئا قليلا أو كثيرا من الاهتمام ، الأمر الذى أسقط فى يد صاحبها ووقع فى خيبة شديدة على عكس ما كان يؤمله ويرتجيه ، بل كانت مثارا للهزء والضحك الشديدين، فكل ما قيل فيها أن الكونت دى غوبينو وهو من الاشراف أراد أن يثأر لأهل طبقته التى تدهورت عزتها مى والجـــاه الذى حملته دهرا طويلا ؛ بل إن الكتاب الذى أصدره الكونت نفسه فيما بعد عن قراءة الخطوط على أشكالها المختلفة أى قراءة ما يكتب بالعكس ، وبشكل عمودى أو مائل وغير ذلك كان له وقع أكبر من النظرية للبراعة التى أظهرها الكاتب فى هذا المضمار لدى غواة هذا الفن .

وإذا أردنا أن ننصف النظرية لا نجد أنها أتت بشىء جديد فلم ينتظر الأنبياء وكبار المشرعين أو القواد الفاتحون من الاسكندر المقدونى إلى يوليوس قيصر إلى شارلمان إلى نابليون أن يطمعوا فى جمع العالم فى امبراطورية تحت إمرة واحدة . ويظهر بطلان النظرية وفساد دعواها من تجريد الشعوب السامية عن كل سؤدد ومجد، وقد دلت هذه الشعوب فى مختلف أدوار التاريخ على تقدمها ونجاحها . وليس أدل على ذلك من هـذه المدنيات الباهرات التى سطع نورها من شواطىء النيل وما بين دجلة والفرات وفى رياض الشام وأنحاء العربية السعيدة فى اليمن يوم كانت تلك النخبة المختـارة من الجرمان والفرنك قبائل بربرية تعيش عيشة ابتدائية . ولقد كان يهون الأمر لو أن النظرية قدرت أن تبرهن على صفاء الدم وطهارة أى جنس من الأجناس البشرية عن الاختلاط بغيرها .

وقع النظرية فى ألمانيا :

ظل الكونت دى غوبينو حياته مسافرا متنقلا من بلد إلى بلد ومن عاصمة إلى عاصمة ، يمثل بلاده كمعتمد أو سفير فلم يعتب عليه بلد أوروبى ، ناهيك عن أنه مكث حقبة من الزمن فى طهران وعاش مدة فى الريودى جانيرو ، ولقد كانت آخر هذه العواصم مدينة استوكهلم ، قام على أثرها بجولة فى روسيا وأنحاء بلاد اليونان ، ثم عاد إلى فرنسا وأحيل على المعاش . ولا يخطر على بالنا أنه انقطع فى كل هذه الحقبة عن الحياة الأدبية فهو ما فتىء مؤمنا بنظريته إيمانا أعمى يجد فيها فتحا جديدا ، يتحدث عنها كل مجلس يضمه ، الأمر الذى حدا بالأميرة غون تجشتيان أن تقول فيه : « هذا دون كيشوت حقيقى فى قالب علماء الاجتماع ولباس رجال السياسة » .

لم يشأ القدر أن يترك الخيبة التى لحقت بالكونت تقتله من جراء الفشل الذى أصيبت به نظرية الأجناس البشرية ؛ فقد قدر له أن يجتمع فى روما بالموسيقار الألمانى الشهير ريشار فجنر فأغرم هذا بالنظرية وبصاحبها ووعده إذا قدم وإياه ألمانيا أن يعمل جهده على نشرها . وهكذا كان فاجتمع الصديقان مدينة بايرون حيث احتفل أدباؤها بصاحب النظرية احتفالا باهرا وأظهروا استعدادهم لنشر آرائه ، وكان أول عمل قاموا به أن أسسوا من بينهم رابطة سموها باسمه ونشروا كتبه بالألمانية ومنذ ذلك الوقت اشتهر دى غوبينو فى الأوساط العلمية والسياسية إذ أن النظرية جاءتهم فى وقت كانوا فيه على وشك انتهائهم من تحقيق الوحدة الجرمانية يفكرون بتأسيس امبراطورية مترامية الأطراف ، فاتخذها رجال غليوم الثانى وسيلة لدفع الشعب على غزو المستعمرات ونشر العلم الألمانى فى الآفاق البعيدة حيث تقول النظرية بأن السيادة للغالب المتفوق ، وليس جديرا بالغلبة والتفوق غير الآريين ، والعنصر الجرمانى أسمى عنصر آرى .

ولقد لعبت النظرية دورا مهما فى عالم الأدب والسياسة فتغنى بها الكاتب الألمانى الشهير فريدريك نيتشه وأوحت إلى بعض آرائه عن السبرمان ، ومنها انبعثت فكرة المذهب الجرمانى Pan germinisme قبل حرب سنة ١٩١٤ ، وكانت للوطنية الاشتراكية بمثابة الحجر الأساسى ، ولها التأثير الأول فى تجريد الأقلية اليهودية عن الجنسية الألمانية واعتبارهم عرقا رديئا منبوذا لا يجوز الاتصال به ، ولا ندرى ما ستخلقه فى المستقبل .

عامل انتشار النظرية فى ألمانيا :

لا شك فى أن الشعوب الشمالية هى أرقى الشعوب المتمدنة على الإطلاق . ولقد ولد فيهم هذا التفوق كثيرا من العنجهية والعزة بأنفسهم، بل ويخامرهم فى بعض الأحايين احتقار لغيرهم من الشعوب التى لم تبلغ شأوهم فى العصر الحديث . وما من أحد زار لندن عاصمة الانكليز المعروفين بأنفتهم إلا قرأ على بعض الأندية ومحلات اللهو العامة هذه العبارة « الشعوب الملونة غير مرغوب

فيها » وقد شاهدت بنفسي في برلين شريطا سينمائيا تظهر فيه فتاة أوروبية شقراء تنشأ وتترعرع عند جماعة من أهل سيبريا النائية فتحب فتى جميلا من بينهم وتتأهب وإياه للاحتفال بالعرس ، ولكن المصادفة تجعلها تلتقي بفتى أوروبي أقل جمالا من عريسها المنتظر الذي أحيته من كل جوارحها ، وبالرغم من ذلك كله تشعر باحساس يدفع بها إلى الأوروبي عندما يفضي إليها بإعجابه بها ، وإيثاره إياها فتلحق به غير لاوية على شيء تحت تأثير هذه القوة الكامنة فيها التي جذبتها نحو جنسها طائعة أو كارهة . فاذا كان بعض هؤلاء الشماليين كأهل سكندیناوة مثلا لم تظهر غطرستهم ، فلأنهم مكتفون بأرضهم لا يطمعون في سواها . كذلك الشعب الألماني فإنه شعب راق شمالي أولع بنظرية الأجناس البشرية لأنه كما ذكرنا يطمح إلى إنشاء امبراطورية واسعة تليق به كأكبر أمة في أوروبا ، فوجد فيها باعثا يدفعه إلى تحقيق مآربه وصدى لما يصبو إليه في الفتح والتوسع . أما الإنكليز والفرنسيس فانهم ليسوا بحاجة إليها فقد أسسوا امبراطوريتهم منذ عهد بعيد ، واستولوا على ما استطاعوا الاستيلاء عليه . وخلاصة القول أن هذا الشعور بالتكبر والخيلاء أحس به كل غالب مسيطر إلا أنه لم يأخذ شكلا علميا في قالب نظرية إلا على يد الكونت دي غوبينو .

الوطنية ونظرية الأجناس البشرية :

يخيل إلى البعض لأول وهلة أنه ضرب من الخرق أن يقال إنه كان وما زال لنظرية الأجناس البشرية تأثير فعال في إيقاظ الروح القومي وتأجيج الشعلة الوطنية في العالم ، لعلمهم أن الوطنية هي الشعور بواجب كل شعب من الشعوب نحو أرضه ولغته وتاريخه . ونحن لا نذهب غير هذا المذهب في تعريف الوطنية ؛ إنما نريد أن نقول إن ظهور نظرية الجنس جعل كل شعب يفكر في أمره ، وينعم النظر في مصيره لعاملين اثنين : الأول دعوة النظرية إلى ضم الأمم الجرمانية في إمبراطورية واحدة . والثاني زعم النظرية بوجوب وضع العالم أجمع في قبضة هذه الكتلة الجرمانية المختارة ، فلا يخفى أن العامل الأول يفقد الشعوب التي من أصل جرماني استقلالها ، والعامل الثاني يضع الشعوب الأخرى تحت نير الاستعمار يضاف إلى ذلك أن كل شعب غره الشنآن القوي الذي تطنب به النظرية ، وإذا كان الكونت دي غوبينو يحصره في الجرمان وحدهم فان الأقوام الأخرى قسرته على هواها ، وفيما ورثته من تقاليدها وأيامها ترى الرفعة فيها والتفوق في قومها .

كل هذه الأمور أيقظت الروح القومي ، فأخذت الشعوب تقوى في أفرادها فكرة الوطن والتعلق به ، ولم تفت الإشارة إلى ذلك العالم الفرنسي هنري ديسون فأتى في كتابه عن الإسلام بما ملخصه « رأينا في العالم إثر نشر الكونت دي غوبينو نظريته عن الأجناس البشرية تحولا غريبا ، فقد تمسكت أكثر الأمم بأهداب القومية تمسكا شديدا ، وادعت باتصالها الوثيق بعرقها الأصلي في حين أن الحقيقة تكذب ذلك ، فلم تسلم أمة من الامتزاج والاختلاط حتى لنتمكن من القول إنه ليس في هذا العالم من جنس صاف سليم . وقد شملت هذه الموجة القومية إبان الحرب العالمية النصرمة أمم الشرق المسلمة ؛ فبينما كانت تدعو إلى الجامعة الإسلامية تحولت إلى السعي وراء جامعة عربية . وهكذا الأمر في تركيا وفارس ؛ فقد تركت زعامتها الإسلامية في سبيل المثل الأعلى التركي ، واهتمت الثانية بشؤونها الخاصة . وهكذا الحال في وادي النيل ، فقد رأى سكانه أنفسهم مصريين قبل أن يكونوا مسلمين . ولعل أقوى ما بقي عليه الشعور الإسلامي في أقصى الشرق المسلم في وزرستان والهند وفي أقصى المغرب المسلم في طرابلس الغرب وتونس وما وراءها » .

يغلب على ظن الناس أن النظام القومي خير نظام يعيشون فيه ، ولكن الواقع وبخاصة في هذه الأيام الأخيرة يرينا العداوات تجرهم إلى التقتيل والتفظيع كأن مدنيتهم لم تقدمهم في غير التفنن في شحذ الشحناء واختراع المهلكات . ما ذا كان يضير هذه الشعوب أن تعيش متآخية مجتمعة لا غالب ولا مغلوب ، ولا آكل ولا مأكول ؟ ... غير أن العلماء يجدون بأن النظام القومي هو مرحلة لا بد منها يمر فيها الناس قبل أن يجمعوا شملهم في إنسانية واحدة . وإنا نتمنى من صميم الفؤاد أن يمر العالم بهذه المرحلة فلا يقضي عليه الجشع والأثرة وحب الاستيلاء ، ولنا في التاريخ أكبر العبر ، وقد جاء في القرآن الكريم « ولا تنازعوا فتفشلوا » .

صاحب بهجت